العرب
الإثنين 2020/03/16
السنة 42 العدد 11648

نظرة على تحوّلات الصراع السوري

ماجد كيالي
كاتب سياسي فلسطيني

عندما انطلقت الثورة السورية في شهر مارس 2011، ضمن مجمل ثورات "الربيع العربي"، التي اندلعت من تونس في العام 2010، وشملت بعدها مصر واليمن وليبيا، والتي امتدت لتشمل السودان والجزائر ولبنان والعراق (في موجتها الثانية قبل أكثر من عام)، ما كان من الممكن تصور كل ما حصل، والذي فاق أكثر التوقّعات والتخيّلات بؤسا وسوءا.

في المحصّلة تمخّض الصراع الجاري في سوريا، منذ تسعة أعوام، عن كارثة بكل معاني الكلمة، وهو المسار الذي وصم معظم ثورات الربيع العربي، بشكل أو بآخر، ولكن ما جرى في سوريا كانٍ الأقسىٰ والأصعب والأكثر هولاً، مع تفكك الدولة والمجتمع، وقتلىٰ بمئات الألوف، وتشرّد الملايين، ودمار العمران، ومؤخرا مع تحوّل البلد إلىٰ ساحة لتصارع قوى دولية وإقليمية، أهمها الولايات المتحدة وروسيا وإيران وتركيا وإسرائيل، مع ميليشيات عابرة للحدود.

علىٰ أي حال، ففي لحظة البدايات، أي لحظة اندلاع الثورة، التي اتسمت بالعفوية والسلمية والتوق للحرية عبر إحداث تغيير سياسي، ما كان من الممكن توقع استخدام النظام السوري للبراميل المتفجرة والصواريخ والقصف الجوي والمدفعي، علىٰ النحو الذي تم به، ولا كان من المتوقع التحوّل نحو العمل المسلح وحده، بدعم من قوى خارجية بالشكل الذي شهدناه.

لم يعد بالإمكان الحديث عن استقرار، وعن إعادة اللحمة في المجتمع السوري، بكل مكوّناته الإثنية والدينية والمذهبية والمناطقية، من دون بناء إجماع وطني جديد

أيضا، لم يكن من المتوقع مصرع كل هذا العدد من السوريين، وتشريد الملايين منهم، لمجرد طلبهم التغيير السياسي في بلدهم، ولا ظهور تنظيم مثل داعش أو جبهة النصرة، ولا تدخّل بلدين كبيرين مثل روسيا وإيران في الصراع الداخلي.

لكن، في المقابل، فقد كان من المتوقع لجوء النظام إلىٰ الحل الأمني، في ظل شعاره "سوريا الأسد إلىٰ الأبد"، الذي لا يعترف فيه للسوريين بحقوق المواطنة، ويعتبر فيه سوريا مجرد مزرعة وراثية.

بمعنىٰ أنه كان من المتوقع قسوة شديدة من النظام في التعامل مع البيئات الشعبية المتمردة عليه، وضمن ذلك سقوط قتلىٰ ومعتقلون بعدد كبير، كما كان المتوقع وجود تدخلات إقليمية ودولية داعمة للنظام.

علىٰ أي حال فإن الكلام المذكور بات خلفنا، بعد كل ما حصل، ما يفترض عدم العيش في الماضي، وأخذ عديد من التحوّلات في الحسبان، والتي ربما يكمن أهمها في الآتي:

أولا، ما عاد بالإمكان الحديث عن ثورة في سوريا، فتلك تم قتلها أو إجهاضها أو تبديدها، عمليا، من أطراف عديدة، بطريقة أو بأخرى، وهذا الكلام لا يقلل من شأنها، ولا من مشروعيتها، لكن الرغبات والتخيلات شيء والواقع شيء آخر.

أما ما بتنا نشهده اليوم فهو نوع من صراع علىٰ سوريا، وهذا أمر مختلف، بمعنىٰ أن نتيجة الصراع لم تعد تتوقف عمّا يريده الشعب السوري، ولا النظام السوري، وإنما وفقا لما تريده الأطراف الدولية والإقليمية المتصارعة، أي أن العامل الخارجي، بأطرافه المتعددة فوّت الثورة، وفوّت مطالب الشعب السوري، وهو ما بتنا نشهده في مخرجات مفاوضات أستانة وسوتشي ومؤخرا موسكو، كما في القرارات الدولية.

والمعنىٰ من طل ذلك أن التسوية التي قد تأتي لاحقا ستلحظ فقط إعادة الاستقرار للبلد، وإيجاد نوع من التوازنات فيه، ، وربما أن تلك المرحلة قد تشكّل مدخلا أو مفتاحا لمرحلة أخرى، ربما تأخذ سوريا أو تمهد لأخذها، نحو التغيير السياسي المنشود، باتجاه قيام دولة تتأسس علىٰ المواطنين والديمقراطية.

ثانيا، بعد كل ما جرى في سوريا في السنوات التسع الماضية، لم يعد بالإمكان الحديث عن استقرار، وعن إعادة اللحمة في المجتمع، بكل مكوّناته الإثنية والدينية والمذهبية والمناطقية، من دون بناء إجماع وطني جديد، لأن ما تهشّم في البلد ليس فقط البني التحتية ولا المدن لوحدها، وإنما العمران البشري أيضا، وضمن ذلك طريقة رؤية السوريين لذاتهم كشعب، أي إن أي محاولة تشتغل علىٰ عملية التغيير يفترض أن تأخذ تلك المسألة بعين الاعتبار.

ومن الواضح أن حجم التشققات والجدران والخنادق التي باتت تباعد أو تفرّق بين السوريين أضحت تتطلب عدة عوامل أو مداخلات لجسرها، ربما أهمها الزمن، والثقة، وإجماعات وطنية جديدة، والتوافق علىٰ دولة مواطنين أحرار ومتساوين.

ثالثا، ما يفترض أن يدركه السوريون في هذا المجال، أيضا، أن أي محاولة لإعادة بناء إجماعاتهم تتطلب، قبل أي شيء، وقبل أي أحد آخر، الابتعاد عن أي ولاءات أو أجندات خارجية، لأن عكس ذلك سيكون علىٰ حسابهم، أي علىٰ حساب رؤيتهم لذاتهم كشعب، وعلىٰ حساب مصلحتهم في الاستقرار والتغيير السياسي، في واقع لا تشتغل به الدول الأخرى كجمعيات خيرية، ولا كنوادي حقوق إنسان، وشاهدُنا علىٰ ذلك تبعات السياسة التركية، وضمن ذلك سكوت "المعارضة" السورية عن تحالف أستانة الثلاثي (مع روسيا وإيران)، أو تبريره، لثلاثة أعوام، مع كل الويلات التي جلبها علىٰ السوريين، وضمن ذلك اتفاق موسكو الأخير بشأن إدلب.

في الواقع بعد تسعة أعوام من الصراع السوري، لا توجد مأساة تضاهي مأساة السوريين، وخيبات أملهم، ولا مصيبة تضاهي إخفاقات معارضتهم، وأكثر من ذلك فإن السوريين هم الغائب الأكبر في كل المعادلات السياسية الجارية اليوم، فالروسي والتركي يتفاوضان كل علىٰ حصته من جسدهم، والإيراني يسعىٰ لقضم أكبر حصة من لحمهم الحي، والإسرائيلي يسرح ويمرح في فضائهم، في حين تقف الولايات المتحدة بانتظار فرض ما تريده بعد أن تشبع من تلك اللعبة.

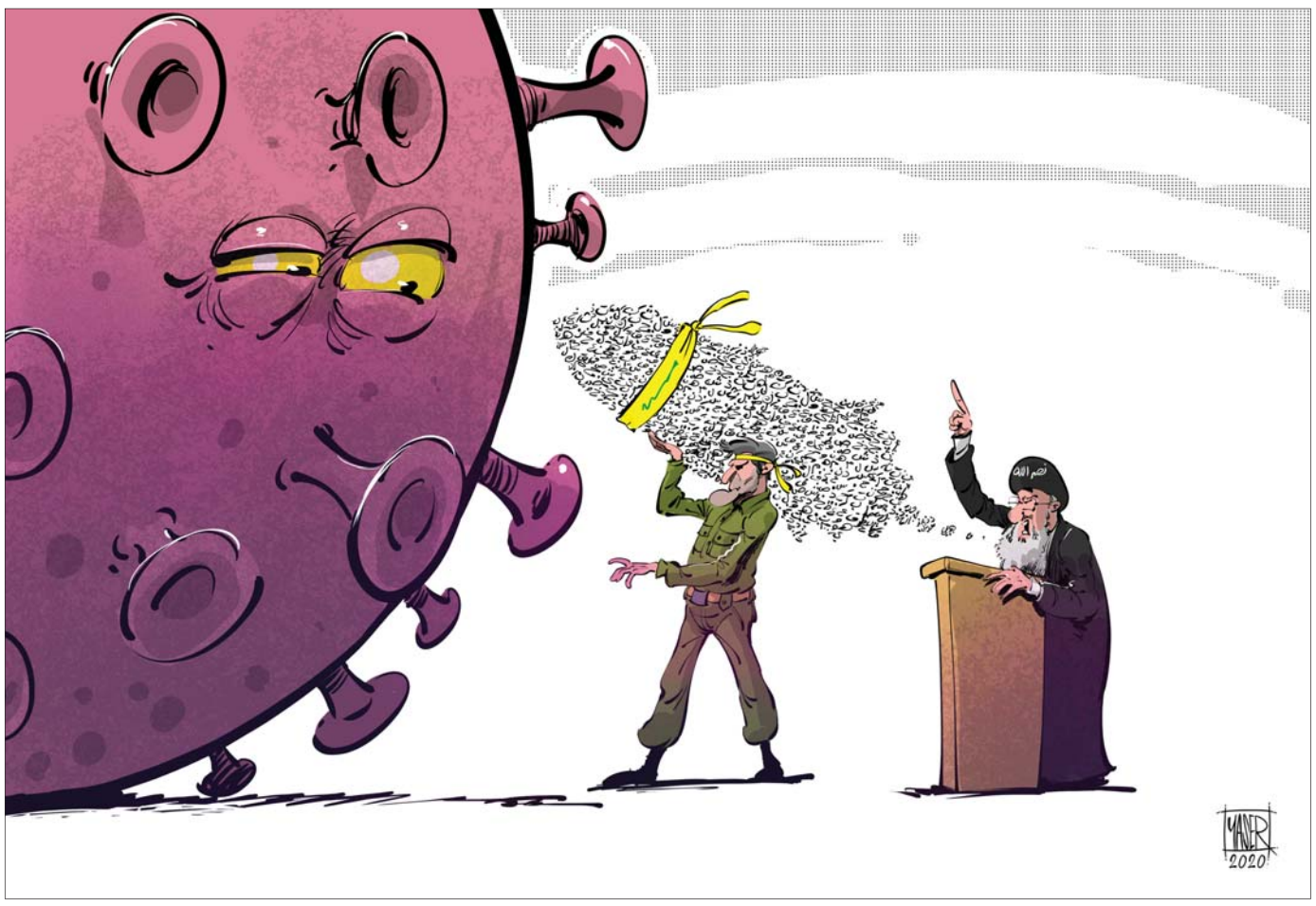

هزيمة 14 آذار... وانتصار «حزب الله»

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

إذا كان مطلوبا أن تعود الحياة إلىٰ لبنان، الأكيد أن ذلك لا يكون عبر النصائح والإرشادات والتوجيهات والتعليمات التي أطلقها الأمين العام لـ"حزب الله"، حسن نصرالله، عن كيفية مواجهة وباء كورونا. كشفت هذه النصائح والإرشادات والتوجيهات والتعليمات أن نصرالله يعتبر نفسه "مرشد" الجمهورية اللبنانية والمرجعية الأولىٰ والأخيرة في البلد. كذلك، كشفت أنّه لا يمتلك الحد الأدنىٰ من التواضع للاعتراف بأنّ المسؤولية الأكبر لما وصل إليه لبنان من إفلاس علىٰ كلّ المستويات، هي مسؤولية "حزب الله" ومن يقف خلفه في طهران.

لا يحتاج لبنان، في هذه الأيّام، إلىٰ من يحدد له كيف مواجهة وباء كورونا. هناك خبراء في العالم يعرفون جيّدا كيفية احتواء الوباء في انتظار إيجاد اللقاح الذي يمكن أن يُولدَ في المختبرات قريبا أو خلال بضعة أشهر. في المقابل، يحتاج لبنان قبل كلّ شيء إلىٰ الخروج من الوصاية الإيرانية المفروضة عبر ميليشيا "حزب الله" التي لعبت دورها في تسهيل وصول كورونا إلىٰ لبنان عن طريق الحدود السائبة مع سوريا ومطار بيروت في الوقت ذاته.

جاء خطاب الأمين العام لـ"حزب الله"، المخصص في معظمه لوباء كورونا، عشية ذكرى الرابع عشر من آذار. ألقىٰ الخطاب مساء الثالث عشر من الشهر الجاري، متجاهلا أن اللبنانيين لم ينسوا بعد ماذا يعني انتهاء زمن الوصاية السورية نتيجة تظاهرة شارك فيها مئات الآلاف من كل الطوائف والمناطق وكل الطبقات الاجتماعية. كانت التظاهرة بعد شهر علىٰ اغتيال رفيق الحريري وكانت ردّا مباشرا من الشعب اللبناني علىٰ حسن نصرالله الذي نظّم حزبه في الثامن من آذار – مارس 2005 تظاهرة تحت عنوان "شكرا سوريا". بدا كأنّ المطلوب تمرير عملية اغتيال رفيق الحريري بالتي هي أحسن. ولذلك، سارع رئيس الجمهورية وقتذاك، وكان يدعىٰ إميل لحّود، إلىٰ وصف عملية الاغتيال بأنّها "رذالة"، وأعطىٰ تعليمات بإزالة آثار التفجير، أي تنظيف مسرح الجريمة، بحجة حاجة الناس إلىٰ الانصراف مجدّدا إلىٰ إعمالها.

بين 14 آذار – مارس 2005، و14 آذار – مارس 2020، مرّت علىٰ لبنان أحداث كثيرة وصولا إلىٰ يوم إلقاء حسن نصرالله خطابا عن وباء كورونا وظهوره في مظهر الأب الصالح الحريص علىٰ مصلحة اللبنانيين وعلىٰ حالهم الصحّية. لاشكّ أن ذلك لم يكن ممكنا لولا هزيمة مشروع 14 آذار الذي كان قائما علىٰ فكرة الحرّية والسيادة والاستقلال.

الطريق إلىٰ هزيمة مشروع الاستقلال الثاني للبنان الذي وُلدَ في العام 2005 دفع ثمنه عدد كبير من الشرفاء اللبنانيين. فقبل اغتيال رفيق الحريري ورفاقه، علىٰ رأسهم باسل فليحان، جرت محاولة لاغتيال مروان حمادة، النائب الحالي والوزير السابق. نجا مروان الذي كان قريبا من رفيق الحريري ووليد جنبلاط من هذه المحاولة بأعجوبة. كان المقصود، وقتذاك، توجيه رسالة إلىٰ صحيفة "النهار" المعادية للوجود السوري أيضا، ذلك أن حمادة كان خال جبران غسّان تويني، صاحب الجريدة في تلك المرحلة.

من أجل تغطية عملية تفجير موكب رفيق الحريري، كانت هناك حاجة إلىٰ جرائم كثيرة. اغتيل سمير قصير وجورج حاوي وجبران تويني والنائبان وليد عيدو وأنطوان غانم والرائد وسام عيد واللواء وسام الحسن. كذلك اغتيل بيار أمين الجميّل، بكلّ ما كان يمثّله علىٰ الصعيدَيْن المسيحي والوطني، وأخيرا محمّد شطح الذي كان عقلا سياسيا استثنائيا.

كانت، ولا تزال، كلّ الضربات مسموحة من أجل وضع "حزب الله" يده علىٰ لبنان، بدءا بافتعال حرب صيف 2006 مع إسرائيل، وهي حرب عادت بالخراب علىٰ لبنان، وصولا إلىٰ التدخل في سوريا من منطلق مذهبي ليس إلا. لم تجد إيران أفضل من "حزب الله" ترسله إلىٰ سوريا لمنع إخراج بشار الأسد ونظامه الأقلّوي من دمشق. بات "حزب الله" منذ العام 2012 شريكا مباشرا في الحرب التي يتعرّض لها الشعب السوري، فيما العالم يتفرّج!

لا مفرّ من الاعتراف بأنّ هزيمة لحقت بمشروع 14 آذار، وهي هزيمة تكرّست في أيار – مايو 2008 لدى حصول غزوة بيروت والجبل. أدّت تلك الغزوة التي سبقها اعتصام طويل في وسط بيروت مباشرة بعد انتهاء حرب صيف 2006 إلىٰ تبديل في موازين القوى، خصوصا أن الزعيم الدرزي وليد جنبلاط بدأ يشعر بدقة المرحلة التي يمر فيها البلد والضغوط التي تتعرّض لها طائفته محدودة العدد التي تنتشر في قرى وبلدات ذات مواقع مهمّة في الجغرافيا اللبنانية وحتّىٰ الإقليمية.

ما يؤكّد انتصار "حزب الله"، المتهم باغتيال رفيق الحريري، علىٰ لبنان أنّه صار يستطيع فرض رئيس الجمهورية، الذي يختاره، علىٰ اللبنانيين. هذا ما حدث في تشرين الأوّل – أكتوبر 2016. أكثر من ذلك، صار الآن يختار من هو رئيس مجلس الوزراء السنّي. لم يعد سرًا أن الحكومة الحالية برئاسة حسّان دياب هي حكومة "حزب الله" لا أكثر.

ما نشهده حاليا هو استكمال لحرب صيف 2006 التي انتهت بانتصار ساحق ماحق للحزب الذي يتزعّمه حسن نصرالله، والذي ليس سوى لواء في "الحرس الثوري" الإيراني، علىٰ لبنان واللبنانيين. في عزّ تلك الحرب وقف وليد جنبلاط وسأل: لمن سيهدي الحزب انتصاره؟

الثابت الآن أنّه أهداه إلىٰ إيران.

ما الذي استطاعت إيران عمله بهذا الانتصار؟ ما الذي يستطيع حسن نصرالله عمله عندما يكون لبنان مهزوما ومشروع الحرّية والسيادة والاستقلال يعاني من هزيمة منكرة لحقت به لأسباب كثيرة. قسم من هذه الأسباب عائد إلىٰ التركيبة الداخلية التي خرجت من رحمها حركة 14 آذار، وقسم آخر يعود إلىٰ أسباب خارجية بعضها عربي...

الثابت الوحيد أن لبنان، في ظل أزمته الاقتصادية أشبهَ بمريض في غرفة العناية الفائقة. علىٰ الرغم من ذلك، ما زال لبنان يقاوم وما يزال فيه من يقول لا لحسن نصرالله بكلّ ما يمثّله.

ثقافة الموت انتصرت على ثقافة الحياة في لبنان. هنيئا لصاحب الانتصار الذي لا يريد أن يرى أنّ لغة المقاومة والممانعة، بشعاراتها الفارغة، لا تنفع في التصدّي لوباء كورونا

عمليا، انتصرت ثقافة الموت علىٰ ثقافة الحياة في لبنان. هنيئا لصاحب الانتصار الذي لا يريد أن يرى أنّ لغة المقاومة والممانعة، بشعاراتها الفارغة، لا تنفع في التصدّي لوباء كورونا. لا يريد أن يرى أيضا أنّ "الجمهورية الإسلامية" لم تجد في نهاية المطاف سوى أن تطلب مساعدة قيمتها خمسة مليارات دولار من صندوق النقد الدولي... الصندوق نفسه الذي لم يتردد "حزب الله" في شنّ حملة في غاية القساوة عليه. هل من معنىٰ لمثل هذا النوع من الانتصارات التي لم يعد ينقصها غير رفع شعار "الموت للبنان أيضا"؟